الأدب والأديب (١)

إذا اعتبرتَ الخيالَ في الذَّكاء الإنسانيِّ ، وأوْلَيْتَه دِقَّةَ النَّظر ، وحُسنَ التمييز ؛ لم تجده في الحقيقة إلا تقليداً من النَّفس للألوهيَّة بوسائلَ عاجزةٍ منقطعةٍ ، قادرةٍ على التَّصوُّر ، والوهم بمقدار عجزها عن الإيجاد ، والتَّحقيق .

وهذه النَّفس البشرية الآتية من المجهول في أوَّل حياتها ، والرَّاجعة إليه آخر حياتها ، والمسدَّدة في طريقة مدَّة حياتها ، لا يمكن أن يتقرَّر في خيالها : أنَّ الشَّيء الموجود قد انتهى بوجوده ، ولا ترضى طبيعتها بما ينتهي ، فهي لا تتعاطى الموجود فينا بينها وبين خيالها على أنَّه قد فُرغ منه فما يُبدَأ ، وتمَّ فما يُزاد ، وخلد فلا يتحوَّل ، بل لا تزال تضرب ظنَّها وتصرِّف وهمها في كلِّ ما تراه ، أو يتلجلج في خاطرها ، فلا تبرح تتلمَّح في كلِّ وجودٍ غيباً ، وتكشف من الغامض ، وتزيد في غموضه ، وتجري دَأباً على مجاريها ، الخياليَّة الَّتي تُوثق صلتها بالمجهول ؛ فمن ثمَّ لا بدَّ في أمرها مع الموجود ممَّا لا وجود له ، تتعلَّق به ، وتسكن إليه ؛ وعلى ذلك لا بدَّ في كلِّ شيءٍ ـ مع المعاني الَّتي له في الحقِّ ـ من المعاني الَّتي له في الخيال ؛ وها هنا موضعُ الأدب والبيان في طبيعة النَّفس الإنسانيَّة ، فكلاهما طبيعيٌّ فيها ، كما ترى .

وإذا قيل : الأدب ، فاعلم : أنَّه لا بدَّ معه من البيان ؛ لأنَّ النَّفس تخلُق فتُصوِّر ، فتُحسن الصُّورة ؛ وإنَّما يكون تمام التَّركيب في مَعرضه ، وجمال صورته ، ودقَّةِ لمحاته ؛ بل ينزلُ البيان من المعنى الذي يلبسه منزلةَ النُّضج من الثَّمرة وحدَها قبل النُّضج شيئاً مُسمَّى ، أم متميِّزاً بنفسه ، فلن تكونَ بغير النُّضج شيئاً تامّاً ، ولا صحيحاً ، وما بُدَّ من أن تستوفي كمالَ عمرها الأخضر ؛ الذي هو بيانُها ، وبلاغتها .

وهذه مسألةٌ كيفما تناولتها ؛ فهي هي حتَّى تمضيها على هذا الوجه الذي رأيت في الثَّمرة ، ونضجها ؛ فإنَّ البيان صناعة الجمال في شيءٍ جماله هو من فائدته ،

(١) انظر : « عود على بدء » من كتابنا : « حياة الرافعي » . (س) .

وفائدته من جماله ؛ فإذا خلا من هذه الصِّناعة ؛ التحق بغيره ، وعاد باباً من الاستعمال بعد أن كان باباً من التَّأثير ؛ وصار الفرق بين حاليْه كالفرق بين الفاكهة ؛ إذ هي بابٌ من النَّبات ، وبين الفاكهة ؛ إذ هي بابٌ من الخمر ، ولهذا كان الأصل في الأدب البيانَ والأسلوبَ في جميع لغات الفكر الإنسانيِّ ؛ لأنَّه كذلك في طبيعة النَّفس الإنسانيَّة .

فالغرض الأوَّل للأدب المبين أن يخلق للنَّفس دنيا المعاني الملائمة لتلك النَّزعة الثَّابتة فيها إلى المجهول ، وإلى مجاز الحقيقة ، وأن يُلقي الأسرارَ في الأمور المكشوفة بما يتخيَّل فيها ، ويردَّ القليلَ من الحياة كثيراً وافياً بما يضاعف من معانيه ، ويترك الماضي منها ثابتاً قارّاً بما يخلد من وصفه ، ويجعل المؤلم منها لذّاً خفيفاً بما يَبثُّ فيه من العاطفة ، والمملولَ ممتعاً حُلواً بما يكشف فيه من الجمال والحكمة ؛ ومدارُ ذلك كلِّه على إيتاء النَّفس لذَّة المجهول ؛ الَّتي هي في نفسها لذَّة مجهولةَ أيضاً ؛ فإنَّ هذه النَّفس طُلعة[1] متقلِّبة ، لا تبتغي مجهولاً صرفاً ، ولا معلوماً صرفاً ، كأنَّها مُدْركةٌ بفطرتها أنْ ليس في الكون صريحٌ مُطلقٌ ، ولا خفيٌّ مطلقٌ ؛ وإنَّما تبتغي حالةً ملائمةً بين هذين ، يثور فيها قلقٌ ، أو يسكن منها قلقٌ .

وأشواق النَّفس هي مادَّة الأدب ؛ فليس يكون أدباً إلا إذا وضع المعنى في الحياة ؛ الَّتي ليس لها معنى ، أو كان متَّصلاً بسرِّ هذه الحياة ، فيكشفُ عنه ، أو يومئ إليه من قريبٍ ، أو غيَّر للنَّفس هذه الحياة تغييراً يجيء طباقاً لغرضها ، وأشواقها ؛ فإنَّه كما يرحل الإنسان من جوٍّ غيره ، ينقله الأدبُ من حياته الَّتي لا تختلف إلى حياةٍ أخرى ، فيها شورُها[2] ولذَّتها ، وإن لم يكن لها مكانٌ ولا زمانٌ ؛ حياةٌ كملَت فيها أشواقُ النَّفس ؛ لأنَّ فيها اللَّذَّات ، والآلام بغير ضروراتٍ ، ولا تكاليف ؛ ولعمري ! ما جاءت الجنَّةُ ، والنَّارُ في الأديان عبثاً ؛ فإنَّ خالق النَّفس بما ركَّبه فيها من العجائب ، لا يحكم العقل : أنَّه قد أتمَّ خلقها إلا بخلق الجنَّة والنَّار معها ؛ إذ هما الصُّورتان الدَّائمتان المتكافئتان لأشواقها الخالدة إن هي استقامت مُشدَّدةً ، أو انعكست حائلةً .

---

(١) « طُلعة » : كثيرة التَّطلُّع إلى الأشياء .

(٢) « شورها » : الشَّور : العسل المشورُ المجتنى .

وقد صحَّ عندي : أنَّ النَّفس لا تحقَّق من حرِّيَّتها ، ولا تنطلق انطلاقتها الخالدة فتحسُّ وحدة الشُّعور ، ووحدة الكمال الأسمى ؛ إلا في ساعاتٍ ، وفتراتٍ تنسلُّ فيها من زمنها ، وعيشها ، ونقائضها ، واضطرابها إلى (منطقة حيادٍ) خارجيَّةٍ وراء الزَّمان ، والمكان ؛ فإذا هبطتها النَّفس ؛ فكأنَّما انقلبت إلى الجنَّة ، واستروحتِ الخلد ؛ وهذه المنطقة السِّحريَّة لا تكون إلا في أربعةٍ : حبيبٍ فاتنٍ معشوقٍ أُعطيَ قوَّةَ سحر النَّفس ؛ فهي تَنسى به ؛ وصديقٍ محبوبٍ وفيٍّ أوتيَ قوَّة جَذبِ النَّفس ، فهي تنسى عنده ؛ وقطعةٍ أدبيَّةٍ آخِذةٍ ، فهي ساحرةٌ كالحبيب ، أو جاذبةٌ كالصَّديق ، ومنظرٍ فنِّيٍّ رائعٍ ، ففيه من كلِّ شيءٍ شيءٌ .

وهذه كلُّها تُنسي المرء زمنه مدَّةً تطول ، وتقصر ، وذلك فيها دليلٌ على أنَّ النَّفس الإنسانيَّة تصيب منها أساليب روحيَّةً لاتِّصالها هنيهةً بالرُّوح الأزليِّ في لحظاتٍ من الشُّعور كأنَّها ليست من هذه الدُّنيا ، وكأنَّها من الأزليَّة ، ومن ثمَّ تستطيع أن نقرِّر أنَّ أساس الفنِّ عل الإطلاق هو ثورة الخالد في الإنسان على الفاني فيه ، وأنَّ تصوير هذه الثَّورة في أوهامها ، وحقائقها بمثل اختلاجاتها في الشُّعور والتَّأثير ، وهو معنى الأدب ، وأسلوبه .

ثمَّ إنَّ الاتِّساقَ ، والخير ، والحقَّ ، والجمال ـ وهي الَّتي تجعل للحياة الإنسانيَّة أسرارها ـ أمورٌ غير طبيعيَّةٍ في عالمٍ يقوم على الاضطراب ، والأثرة ، والنِّزاع ، والشَّهوات ، فمن ذلك يأتي الشَّاعر ، والأديب ، وذو الفنِّ علاجاً من حكمة الحياة للحياة ، فيبدعون لتلك الصِّفات الإنسانيَّة الجميلة عالمها الَّذي تكون طبيعيَّةً فيه ، وهو عالمٌ أركانهُ الاتِّساق في المعاني الَّتي يجري فيها ، والجمال في التَّعبير الَّذي يتأدَّى به ، والحقُّ في الفكر الذي يقومُ عليه ، والخير في الغرَض الذي يُساق له ، ويكون في الأدب من النَّقص والكمال بحسب ما يجتمع له من هذه الأربعة ، ولا معيار أدقُّ منها ؛ إن ذهبت تعتبره بالنَّظر ، والرَّأي ، ففي عمل الأديب تخرج الحقيقة مضافاً إليها الفنُّ . ويجيء التَّعبير مُزيداً فيه الجمال ، وتتمثَّل الطَّبيعة الجامدة خارجةً من نفسٍ حيَّةٍ ، ويظهر الكلام وفيه رقَّة حياة القلب ، وحرارتها ، وشعورها ، وانتظامها ، ودقُّها الموسيقيُّ ، وتلبَس الشَّهوات الإنسانيَّة شكلها المهذَّب ؛ لتكون بسببٍ من تقرير المثل الأعلى ، الَّذي هو السِّرُّ في ثورة الخالد من الإنسان على الفاني ، والَّذي هو الغاية الأخيرة من الأدب ، والفنِّ معاً ،

وبهذا يَهبُ لك الأدب تلك القوّة الغامضة الَّتي تتَّسع بك حتَّى تشعر بالدُّنيا وأحداثها مارَّةً من خلال نفسك ، وتحسُّ الأشياء كأنَّها انتقلت إلى ذاتك من ذواتها ، وذلك سرُّ الأديب العبقريِّ ، فإنَّه لا يرى الرَّأي بالاعتقاب[1] ، والاجتهاد ، كما يراه النَّاس ، وإنَّما يحسُّ به ، فلا يقع له رأيه بالفكر ، بل يُلهمه إلهاماً ، وليس يُؤاتيه الإلهام إلا من كون الأشياء تمرُّ فيه بمعانيها ، وتعبره كما تعبر السُّفن النَّهر ، فيحسُّ أثرها فيه فيُلهَم ، ويحسبه النَّاس نافذاً بفكره من خلال الكون ، على حين أن حقائق الكون هي النَّافذة من خلاله .

ولو أردت أن تعرِّف الأديب مَنْ هو ؟ لما وجدت أجمع ، ولا أدقَّ في معناه من أن تسمِّيه الإنسان الكونيَّ ، وغيره هو الإنسانُ فقط ، ومن ذلك ما يبلغ من عمق تأثُّره بجمال الأشياء ومعانيها ، ثم ما يقع من اتِّصال الموجودات به بآلامها ، وأفراحها ، إذا كانت فيه مع خاصِّيَّة الكون الشَّامل ؛ فالطَّبيعة تثبت بجمال فنِّه البديع : أنَّه منها ، وتدلُّ السَّماء بما في صناعته من الوحي ، والأسرار : أنَّه كذلك منها ، وتبرهن الحياة بفلسفته ، وآرائه : أنَّه هو أيضاً منها ، وهذا ، وذاك ، وذلك هو الشُّمول الَّذي لا حدَّ له ، والاتِّساع الَّذي كلُّ آخرٍ فيه لشيءٍ أولٌ فيه لشيءٍ .

وهو إنسانٌ يدلُّه الجمال على نفسه ؛ ليدلَّ غيره عليه ، وبذلك زيد على معناه معنىً ، وأضيف إليه في إحساسه قوَّة إنشاء الإحساس في غيره ، فأساس عمله دائماً أن يزيدَ على كلِّ فكرةٍ صورةً لها ، ويزيد على كلِّ صورةٍ فكرةً فيها ، فهو يُبدع المعاني للأشكال الجامدة ، فيوجد الحياة فيها ، ويبدع الأشكال للمعاني المجرَّدة ، فيوجدها هي في الحياة ، فكأنَّه خُلِق ليتلقَّى الحقيقة ، ويعطيها للنَّاس؛ ويزيدهم فيها الشُّعور بجمالها الفنِّيِّ ، وبالأدباء ، والعلماء تنمو معاني الحياة كأنَّما أوجدَتْهم الحكمة ؛ لتنقل بهم الدُّنيا من حالةٍ إلى حالةٍ ، وكأنَّ هذا الكون العظيم يمرُّ في أدمغتهم ليحقِّق نفسه .

مشاركةُ العلماء الأدباء توجبُ أن يتميَّزَ الأديبُ بالأسلوب البيانيِّ ؛ إذ هو كالطَّابع على العمل الفنِّي ، وكالشَّهادة من الحياة المعنوية لهذا الإنسان الموهوب الَّذي جاءت من طريقه ، ثُمَّ لأنَّ الأسلوب هو تخصيصٌ لنوعٍ من الذَّوق ، وطريقةٌ

---

(١) « الاعتقاب » : إطالة النَّظر ، وكذا الفكر . (ع) .

من الإدراك كأنَّ الجمال يقولُ بالأسلوب : إنَّه هذا هو عملُ فلانٍ .

وفصلُ ما بين العالم والأديب : أنَّ العالم فكرةٌ ، ولكنَّ الأديب فكرةٌ وأسلوبُها ، فالعلماءُ هم أعمالٌ متَّصلةٌ متشابهةٌ يشارُ إليهم جملةً واحدةً على حين يقال في كلِّ أديب عبقريٍّ : هذا هو ، هذا وحدَه ؛ وعلم الأديب هو النَّفسُ الإنسانيَّةُ بأسرارها المتَّجهة إلى الطَّبيعة ، والطَّبيعة بأسرارها المتَّجهة إلى النَّفس ، ولذلك فموضع الأديب من الحياة موضع فكرةٍ حدودُها من كلِّ نواحيها الأسرار .

وإذا رأى النَّاس هذه الإنسانيَّة تركيباً تامّاً قائماً بحقائقه ، وأوصافه ، فالأديب العبقريُّ لا يراها إلا أجزاء ، كأنَّما هو يشهد خلقها ، وتركيبها ، وكأنَّما أمرَّها في (معمله) ، أو كأنَّ ـ سبحانه ـ دعاه ليرى فيها رأيه . . . وبذلك يجيء النَّابغ من أدب العباقرة ، وبعضُه كالمقترحات لتجميل الدُّنيا ، وتهذيب الإنسانيَّة ، وبعضه كالموافقة وإقرار الحكمة ؛ وأساسُه على كلِّ هذه الأحوال النَّقدُ ، ثمَّ النَّقد ولا شيء غير النَّقد ؛ كأنَّ القوَّة الأزليَّةَ تقول لهذا الملهم : أنت كلمتي ، فقل كلمتَك .

* * *

وترى الجمالَ حيث أصبته شيئاً واحداً لا يكبرُ ، ولا يصغُر ، ولكنَّ الحسَّ به يكبرُ في أناسٍ ، ويصغُر في أناسٍ ، وها هنا يتألَّه الأدب ؛ فهو خالقُ الجمال في الذِّهن ، والممكِّن للأسباب المعينة على إدراكه ، وتبيُّن صفاته ، ومعانيه ، وهو الَّذي يقدِّر لهذا العالم قيمته الإنسانيَّة بإضافة الصُّور الفكريَّة الجميلة إليه ، ومحاولته إظهار النِّظام المجهول في متناقضات النَّفس البشريَّة ، والارتفاع بهذه النَّفس عن الواقع المنحطِّ المُجْتَمِع مِنْ غشاوة الفِطرة ، وصَولة الغريزة ، وغرارة الطَّبع الحيوانيِّ .

وإذا كان الأمر في الأدب على ذلك ؛ فباضطرارٍ أن تتهذَّبَ فيه الحياة ، وتتأدَّب ، وأن يكون تسلُّطُه على بواعث النَّفس دُربةً لإصلاحها ، وإقامتها ، لا لإفسادها ، والانحراف بها إلى الزَّيغ والضَّلالة ، وباضطرارٍ أن يكون الأديب مكلَّفاً تصحيح النَّفس الإنسانيَّة ، ونفيَ التَّزوير عنها ، وإخلاصها ممَّا يلتبس بها على تتابُع الضَّرورات ، ثمَّ تصحيح الفكرة الإنسانيَّة في الوجود ، ونفي الوثنيَّة عن هذه الفكرة ، والسُّموِّ بها إلى فوق ، ثمَّ إلى فوق ، ودائماً إلى فوق !

وإنَّما يكلِّف الأديب ذلك ؛ لأنَّه مستبصرٌ ، من خصائصه التَّمييزُ ، وتقدُّم النَّظر ، وتسقُّط الإلهام ، ولأنَّ الأصل في عمله الفنِّيِّ ألا يبحث في الشَّيء نفسِه ، ولكن في البديع منه ، وألا ينظر إلى وجوده ، بل إلى سرِّه ، ولا يُعنى بتركيبه ، بل بالجمال في تركيبه ، ولأنَّ مادَّة عمله أحوالُ النَّاس ، وأخلاقهم ، وألوان معايشهم ، وأحلامهم ، ومذاهب أخيلتهم ، وأفكارهم في معنى الفنِّ ، وتفاوت إحساسهم به ، وأسباب مغاويهم ، ومراشدهم ، يُسدِّد على كل ذلك رأيه ، ويُجيل فيه نظره ؛ ويخلطه في نفسه ، ويُنْفِذه من حواسِّه ، كأنَّما له في السَّرائر القبض ، والبسط ، وكأنَّه ولي الحكم على الجزء الخفيِّ في الإنسان ، يقوم على سياسته ، وتدبيره ، ويهديه إلى المثل الأعلى ، وهل يُخلق العبقريُّ إلا كالبرهان من الله لعباده على أنَّ فيهم من يقدِر على الَّذي هو أكمل ، والَّذي هو أبدع ، حتَّى لا ييأس العقل الإنسانيُّ ، ولا ينخذل ، فيستمرُّ دائباً في طلب الكمال والإبداع اللَّذين لا نهاية لهما ؟

فالأديبُ يُشرفُ على هذه الدُّنيا من بصيرته ، فإذا وقائع الحياة في حذوِ واحدٍ من النِّزاع ، والتَّناقض ، وإذا هي دائبةٌ في مَحق الشَّخصيَّة الإنسانيَّة ، تاركةٌ كلَّ حيٍّ من النَّاس كأنَّه شخصٌ قائمٌ من عمله ، وحوادثه ، وأسباب عيشه ، فإذا تلجلج ذلك في نفس الأديب ؛ اتَّجهت هذه النَّفس العالية إلى أن تحفظ للدُّنيا حقائق الضَّمير ، والإنسانيَّة ، والإيمان ، والفضيلة ، وقامت حارسةً على ما ضيَّع النَّاس ، وسُخِّرتْ في ذلك تسخيراً لا تملك معه أن تأتي منه ، ولا يستوي لها أن تغمض فيه ؛ ونُقلت الإنسانيَّة كلُّها ، ووُضعت على مجاز طريقها أين توجَّهتْ ، فتأكَّد الأمر فيها ، ووُصِلَ بها ، وعلمت : أنَّها من خالصةِ الله ، وأنَّ رسالتها للعالم هي تقرير الحبِّ للمتعادين ، وبسطُ الرَّحمة للمتنازعين ، وأن تجمعَ الكلَّ على الجمال ، وهو لا يُختلَف في لَذَّته ، وتصل بينهم بالحقيقة ، وهي لا تتفرَّق في موعظتها ، وتشعِرهم الحكمة ، وهي لا تتنازع في مناحيها ؛ فالأدب من هذه النَّاحية يشبه الدِّين : كلاهُما يُعين الإنسانيَّة على الاستمرار في عملها ، وكلاهما قريبٌ ؛ غير أنَّ الدِّين يعرض للحالات النفسيَّة ؛ ليأمر ، وينهى ، والأدب يعرض لها ؛ ليجمع ، ويقابل ؛ والدِّين يوجِّه الإنسان إلى ربِّه ، والأدب يوجِّهه إلى نفسه ، وذلك وحي الله إلى الملك إلى نبيٍّ مختارٍ ، وهذا وحي الله إلى البصيرة إلى إنسانٍ مختارٍ .

فإن لم يكن للأديب مَثَلٌ أعلى يجهَد في تحقيقه ، ويعمل في سبيله ، فهو أديب حالةٍ من الحالات ، لا أديب عصرٍ ، ولا أديب جيلٍ ، وبذلك وحده كان أهل المثل الأعلى في كلِّ عصرٍ هم الأرقام الإنسانيَّة ؛ الَّتي يُلقيها العصر في آخر أيَّامه ليحسب ربحه ، وخسارته . . .

لا يخدعنَّك عن هذا أن ترى بعض العبقريِّين لا يُؤتَى في أدبه ، أو أكثره إلا إلى الرَّذائل ، يتغلغل فيها ، ويتملأُ[1] بها ، ويكون منها على ما ليس عليه أحدٌ إلا السَّفلة ، والحشوة من طَغام[2] النَّاس ، ورعاعهم ، فإنَّ هذا ، وأضرابه مسخَّرون لخدمة الفضيلة ، وتحقيقها من جهة ما فيها من النَّهي ؛ ليكونوا مثلاً ، وسلفاً ، وعبرةً ، وكثيراً ما تكون الموعظة برذائلهم أقوى ، وأشدَّ تأثيراً ممَّا هي في الفضائل ؛ بل هم عندي كبعض الأحوال النَّفسيَّة الدَّقيقة الَّتي يأمر فيها النَّهي أقوى ممَّا يأمر الأمر ، على نحو ما يكون من قراءتك موعظة الفضيلة الأدبيَّة الَّتي تأمرك أن تكون عفيفاً طاهراً ؛ ثم ما يكون من رؤيتك الفاجرَ المبتلى المشوَّه المتحطِّم ؛ الذي ينهاك بصورته أن تكون مثله ؛ ولهذه الحقيقة القويَّة في أثرها ـ حقيقةِ الأمر بالنَّهي ـ يعمِد النَّوابغ في بعض أدبهم إلى صرف الطَّبيعة النَّفسيَّة عن وجهها ، بعكس نتيجة الموقف الَّذي يصوِّرونه ، أو الإحالة في الحادثة الَّتي يصفونها ؛ فينتهي الرَّاهب التَّقيُّ في القصَّة ملحداً فاجراً ، وترتدُّ المرأة قِدِّيسةً ، ويرجع الابن البارُّ قاتلاً مجنوناً جنون الدَّم ؛ إلى كثيرٍ ممَّا يجري في هذا النَّسق ، كما تراه لأناطول فرانس ، وشكسبير ، وغيرهما ، وما كان ذلك من غفلةٍ منهم ، ولا شرٍّ ، ولكنَّه أسلوبٌ من الفنِّ ، يقابله أسلوبٌ من الخلق ؛ ليبدع أسلوباً من التَّأثير ، وكلُّ ذلك شاذٌّ معدودٌ ، ينبغي أن ينحصر ، ولا يتعدَّى ؛ لأنَّه وصفٌ لأحوالٍ دقيقةٍ طارئةٍ على النَّفس ، لا تعبير عن حقائق ثابتةٍ مستقرَّةٍ فيها .

والشَّرُّ في العبقريِّ الَّذي تلك صفته ، وذلك أدبه ، أن يعلو بالرَّذيلة في أسلوبه ، ومعانيه آخذاً بغاية الصَّنعة ، متناهياً في حسن العبارة ، حتَّى يصبح وكأنَّ الرَّذائلَ هي اختارت منه مفسِّرها العبقريَّ الشَّاذَّ الَّذي يكون في سموِّ فنِّه البيانيِّ ، هو

---

(١) « يتملأ » : يمتلىء .

(٢) « طغام » : هم أرذال الناس ، وأوغادهم .

وحدَه الطَّرفَ المقابلَ لسموِّ العبارة عن الفضيلة ، فيصنع الإلهامُ في هذا ، وفي هذا صنعه الفنِّيَّ بطريقةٍ بديعةِ التَّأثير ، أصلها في أديب الفضيلة ما يريده ويجاهد فيه ، وفي أديب الرَّذيلة ما يقوده ، ويندفع إليه كأنَّ منهما إنساناً صار ملَكاً يكتب ، وإنساناً عاد حيواناً يكتب .

وإذا أنت ميَّزت بين رذيلة الأديب العبقريِّ في فنِّه ، ورذيلة الأديب الفَسْل[1] الَّذي يتشبَّه به في التَّأليف ، والرَّأي ، والمتابعة ، والمذهب ؛ رأيت الواحدة من الأخرى كبكاء الرَّجل الشَّاعر من بكاء الرَّجل الغليظ الجلف : هذا دموعه ألمه ؛ وذاك دموعه ألمه ، وشعره ؛ وفي كتابة هذه الطَّبقة من العبقريِّين خاصَّةً يتحقَّق لك : أنَّ الأسلوب هو أساس الفنِّ الأدبيِّ ، وأنَّ اللَّذَّة به هي علامة الحياة فيه ؛ إذ لا ترى غير قطعةٍ أدبيَّةٍ فنِّيَّةٍ شاهدُها من نفسها على أنَّها بأسلوبها ليست في الحقيقة إلا نكتةً نفسيَّةً لاهتياج البواعث في نفوس قرَّائها ؛ وأنَّها على ذلك هي أيضاً مسألةٌ من مسائل الإنسانيَّة مطروحةٌ للنَّظر ، والحلِّ بما فيها من جمال الفنِّ ، ودقائق التَّحليل .

* * *

واللَّذَّة بالأدب غير التَّلهِّي به ، واتخاذه للعبث والبطالة ، فيجيء موضوعاً على ذلك ، فيخرج إلى أن يكون مَلهاةً ، وسُخفاً ، ومَضيعةً ؛ فإنَّ اللَّذَّة به آتيةٌ من جمال أسلوبه، وبلاغة معانيه، وتناوُله الكون، والحياة بالأساليب الشِّعريَّة الَّتي في النَّفس، وهي الأصل في جمال الأسلوب ، ثمَّ هو بعد هذه اللَّذَّة منفعةٌ كلُّه ، كسائر ما ركِّب في طبيعة الحيِّ ؛ إذ يحسُّ الذَّوق لذَّة الطَّعام مثلاً على أن يكون من فعلها الطَّبيعيِّ استمراءُ التَّغذية لبناء الجسم ، وحفظِ القوَّة ، وزيادتها ، أمَّا التَّلهِّي فيجيء من سخف الأدب، وفراغ معانيه؛ ومؤاتاتِه الشَّهوات الخسيسة؛ والتماسه الجوانب الضَّيقة من الحياة ؛ وذلك حين لا يكون أدبَ الشَّعب ، ولا الإنسانيَّة ؛ بل أدب فئةٍ بعينها، وأحوالها؛ فإنَّ أديب صناعته ، أو أديب جماعته ، غيرُ أديب قومه ، وأديب عصره : أحدُهما إلى حدٍّ محدودٍ من الحياة ، والآخر عملٌ جامعٌ مستمرٌّ متفنِّنٌ ؛ لأنَّ عمله الأدبيَّ هو وجوده ، وكلُّ شيءٍ في قومه لا يبرحُ يقول له : اكتب .

---

(١) « الفَسْل » : الرَّذل ؛ الذي لا مروءة له .

ومن الأصول الاجتماعيَّة التي لا تتخلَّف ، وأنَّه إذا كانت الدَّولة للشَّعب ، كان الأدبُ أدبَ الشَّعب في حياته ، وأفكاره ، ومطامحه ، وألوان عيشه ، وزخَر الأدب ، وتنوَّعَ ، وافتَنَّ ، وبُني على الحياة الاجتماعيَّة ؛ فإن كانت الدَّولة لغير الشَّعب ، كان الأدبُ أدبَ الحاكمين ، وبُني على النِّفاق ، والمداهنة ، والمبالغة الصِّناعيَّة ، والكذب ، والتَّدليس ؛ ونَضِب[1] الأدب من ذلك ، وقلَّ ، وتكرَّر من صورةٍ واحدةٍ . وفي الأولى يتَّسع الأديب من الإحساس بالحياة ، وفنونها ، وأسرارها في كلٍّ من حوله إلى الإحساس بالكون ، ومجاليه ، وأسراره في كلِّ ما حوله . أمَّا الثَّانية ؛ فلا يُحسُّ فيها إلا أحوال نفسه ، وخليطه ، فيصبح أدبه أشبه بمسافةٍ محدودةٍ من الكون الواسع ، لا يزال يذهب فيها ، ويجيءُ حتَّى يملَّ ذهابه ، ومجيئه .

والعجب الَّذي لم يتنبَّه له أحدٌ إلى اليوم من كلِّ مَنْ درسوا الأدبَ العربيَّ قديماً ، وحديثاً : أنَّكَ لا تجد تقريرَ المعنى الفلسفيَّ الاجتماعيَّ للأدب في أسمى معانيه إلا في اللُّغة العربيَّة وحدها ، ولم يغفل عنه مع ذلك إلا أهل هذه اللُّغة وحدهم !

فإذا أردت الأدب ؛ الَّذي يقرِّر الأسلوب شرطاً فيه ، ويأتي بقوَّة اللُّغة صورةً لقوَّة الطِّباع ، وبعظمة الأداء صورةً لعظمة الأخلاق ؛ وبرقَّة البيان صورةً لرقَّة النَّفس ، وبدقَّته المتناهية في العمق لدقَّة النَّظرة إلى الحياة ؛ ويُريك : أنَّ الكلامَ أمَّةٌ من الألفاظ عاملةٌ في حياةِ أمَّةٍ من النَّاس ، ضابطةٌ لها المقاييس التَّاريخيَّة ، مُحكمةٌ لها الأوضاع الإنسانيَّة ، مشترطةٌ فيها المثلَ الأعلى ، حاملةٌ لها النُّور الإلـٰهيَّ على الأرض .

. . . وإذا أردتَ الأدب ؛ الَّذي ينشئ الأمَّة إنشاءً سامياً ؛ ويدفعها إلى المعالي دفعاً ، ويردُّها عن سَفاسِف الحياة ، ويوجِّهها بدقَّة الإبرة المغناطيسيَّة إلى الآفاق الواسعة ، ويسدِّدها في أغراضها التَّاريخيَّة العالية تسديد القنبلة خرجت من مدفعها الضَّخم المحرَّر المحكم ، ويملأ سرائرها يقيناً ، ونفوسها حزماً ،

---

(١) « نضب » : قلَّ .

وأبصارها نظراً ، وعقولها حكمةً ، ويَنْفُذ بها من مظاهر الكون إلى أسرار الألوهيَّة .

. . . إذا أردتَ الأدب على كلٍّ هذه الوجوه من الاعتبار ؛ وجدت القرآن الحكيم قد وَضَع الأصل الحيَّ في ذلك كلِّه ، وأعجب ما فيه : أنَّه جعل هذا الأصل مقدَّساً ، وفرضَ هذا التَّقديس عقيدةً ، واعتبر هذه العقيدة ثابتةً لن تتغيَّر ، ومع ذلك كلِّه لم يتنبَّه له الأدباء ، ولم يَحْذوا بالأدب حَذْوه ، وحسِبوه ديناً فقط ، وذهبوا بأدبهم إلى العبث ، والمجون ، والنِّفاق ، كأنَّه ليس منهم إلا بقايا تاريخٍ محتضَرٍ بالعلل القاتلة ، ذاهبٍ إلى الفناء الحتم ! .

والقرآن بأسلوبه ، ومعانيه ، وأغراضه لا يُستخرج منه للأدب إلا تعريفٌ واحدٌ ، هو هذا : إنَّ الأدب هو السُّموُّ بضمير الأمَّة .

ولا يُستخرجُ منه للأديب إلا تعريفٌ واحدٌ ، هو هذا : إنَّ الأديب هو من كان لأمَّته ، وللغتها في مواهب قلمه لقبٌ من ألقاب التَّاريخ .

* * *